الأب أيوب شهوان

أمبراطوريات بلاد الرافدين وبصماتها على تاريخ إسرائيل واليهودية

مقدمـــة

تستوقف قارئَ نصوصِ العهدِ القديم أسماءُ أشخاصٍ ومواقعَ ارتبطت بأسماء أمبراطوريات عظيمة، كأشور وبابل وفارس، وبأحداثٍ كانت هذه الأخيرة لاعبَها الأساسي، تاركةً بصماتها في تاريخ مملكتَي إسرائيل ويهوذا، سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، فكرًا وسلوكًا، وأحيانًا توجُّهًا دينيًّا مستجدًّا.

سنحاول أن نستعرض أهم التأثيرات الناتجة عن سطوة الأمبراطوريات الأشورية والبابلية والفارسية، وعن اكتساحها مرّات عدّة لأرض إسرائيل، وتعاطيها بقسوة مع شعب العهد القديم.

١ – أثر قوة الآشوريين على بني إسرائيل

أيام حكم سلالة عُمري[١]، أَبعدَتْ الأراضي السوريةُ والفلسطينيةُ الصغيرةُ خطرَ آشور، الأمبراطوريةِ الشرق–أوسطية، وذلك من خلال تشكيل سلسلة من التحالفات. لكن عندما تسلّم زمامَ الأمور في إسرائيل ملوكٌ منحازون إلى آشور، انهارت سنواتٌ من السلام الخاصِّ والصعبِ. في الواقع، لا يرى بعضُ المؤرّخين في ثورة ياهو ملكِ إسرائيل سوى عملٍ خطّطتْ له فئةٌ موالية لآشور بهدف تحطيم سلالة عُمري المناهض لآشور.

(١) CAZELLES Henri, *Introduction à la Bible* - Édition nouvelle. *L'Ancien Testament* (Desclée: Paris 1973) 47s. 323. 761; PEREGO Giacomo, *Interdisciplinary Atlas of the Bible. Scripture, History, Geography, Archeology and Theology* (St Pauls: UK 1999). (Original title: *Atlante Biblico Interdisciplinare,* ed. San Paolo: Roma 1998. Translated by Stewart Foster) 42. 44. 46.

كان الجيش الآشوري محترفًا، يفتخر، ليس فقط بالعربات الحربية التي كانت متوفّرة لديه، بل أيضًا بجيوش مدرَّبة تدريبًا جيّدًا على ركوبها. لقد أرعب هذا الجيشُ المنطقةَ من خلال استباحةِ أرض العدوّ ونهبها. وكان تغلاتفلاسر الثالث (٧٤٥–٧٢٧)، أكثر من أيّ آخر، هو مَن أصلح بنيةَ المملكة، مستبدلاً المقاطعات الواسعة التي كانت تصعب إدارتها بمقاطعات أصغر. دشّن سياسةَ أمبراطوريةٍ جديدةٍ مبنيةٍ على ضمّ أراضي العدوّ انطلاقًا من مبادىء ثلاث:

- إقامة علاقة موالاة، أي سيادة محدودة، والإعفاء من الضرائب الثقيلة، وسياسة خارجية مرتبطة كليًّا بآشور؛
- التدخّل العسكري عند بروز أوّل علامة تمرّد، فتُقَلِّص الحدودَ إلى أقصى حدّ، وتُضاعف الضرائب بشكل ملحوظ؛
- التدخّل العسكري الحاسم ضدّ أيّة معارضة أخرى، فيُقَالُ الحاكمُ، ويُنَصَّبُ آخَرُ آشوريّ مكانه، وتُنفَى الطبقةُ الحاكمة، وتُترَك البلادُ بدون قائد، ويُؤتَى بفئاتٍ إثنيّةٍ جديدة.

٢ – الحرب السوريّة الأفرائيميّة[٢]

بلغت مملكةُ إسرائيل ذروةَ قوّتِها في النصف الأول من القرن الثامن ق. م.، لكنَّ أُفولَها كان سريعًا كصعودها. فمع وفاة ياربعام الثاني وابنه زكريا، انتهت سلالة ياهو. سنة ٧٣٨، كان تغلاتفلاسر

(٢) CAZELLES, *op. cit.*, p. 54. 381. 385-387; Id., «Problèmes de la guerre syro-ephraïmite», *Eretz Israel* XIV (Jérusalem 1978).

الثالث قد بلغ جبالَ لبنان حيث أنشأ مقاطعةً آشوريةً جديدة. من بين الحكّام الذين كانوا في مرحلة الضمّ، هناك ملكًا بيبلوس وصور، ورصين ملك آرام، ومناحيم ملك إسرائيل، وملكة عرابيا. فشلت محاولات متتالية لتشكيل أحلاف معادية لآشور. كانت هناك جهود قام بها في هذا السياق رصينُ ملكُ آرام، وفقحيا ملكُ إسرائيل؛ شرطُ نجاحِها كان انضمام آحاز ملكِ اليهودية إليهما، وذلك من أجل تجميد مفعول المحميّات العسكرية الآشورية على طول الحدود مع مصر، لكن آحاز لم يوافق، لأنه لم يكن له مصلحة في حلف غير أكيد، قد يعرّضه لأن يصبح في وضع تبعيّةٍ لآشور كما مملكة الشمال، ولأن يُثقَلَ كاهلُه بالضرائب. كانت لرصين ولفقحيا القدرة على حلّ المسألة عسكريًّا، وذلك بالهجوم على أورشليم، وباستبدال آحاز بابن طابئيل الذي نال حظوةً في عيني الحليفَين المذكورَين (أش ٧:٦). عندها فَقَدَ آحازُ ومستشاروه صوابَهم بالكلية؛ وبالرغم من دعوة أشعيا لهم للهدوء[٣]، راحوا يسعون إلى جعل آشور تتدخّل ضدّ رصين وفقحيا. وهكذا أُخِذَ المَلِكان على غفلة، وهُزِمَا، فخسرت إسرائيل كلّ الجليل، وسُبِيَت الطبقة الحاكمة، وقُتِل فقحيا، واستُبدِل بهوشيَع المنحاز إلى آشور. أُخضِعَت دمشق سنة ٧٣٢، وقُتِل رصين، وحُوِّلَت أرضُه إلى مقاطعة آشورية. هكذا سارت مملكةُ الشمال في طريق الزوال، كما أصبحت اليهودية في وضع تبعيّة لآشور.

٣ – المملكة اليهوديّة بعد سقوط السامرة (٧٢١-٥٨٦)

سقطت إسرائيل سنة ٧٢١، وكان النيرُ الآشوري يثقل كاهلَ اليهوديّة. قام حزقيا ملك اليهودية بعصيان ضد السيطرة الآشوريّة، وضَرَبَ بقوّة الفلسطيين أيضاً، وطاردهم حتّى غزّة (٢ مل ١٨: ٧ و٨). كان صراعُ اليهوديّةِ هو في سبيل البقاء على قيد الحياة. شرع حزقيا في إصلاحات دينية؛ ويُخبِرُ ٢ أخ ٣٠ أنه دعا لاجتماع الشعب من كل البلاد الواقعة بين بئر سبع (في الجنوب)، ودان (في الشمال)، في أرض أفرائيم ومنسّى، وفي أرض زبولون شمالاً، ليأتي ويحفظ الفصح في أورشليم.

هاجم سرجون الآشوريّ أشدودَ سنة ٧١١ وجعل منها مقاطعة آشورية. من المحتمل أن يكون ميخا قد تنبّأ في هذا الوقت ضدّ فلسطيا ومُدُنِ تلك المنطقة، بما فيها جَتّ، وبِتْ-إصَل، ومُورِشْتْ-جَت، وأكزيب، ومَرِيشَهْ، وعَدُلام (مي ١: ١٠-١٥).

(٣) MARTIN-ACHARD R., "Esaïe et Jérémie face aux problèmes politiques", *RHPR* (1976) 208-224.

حصَّنَ حزقيا دفاعاتِ أورشليم (٢ أخ ٣٢:٥)، واعتنى بتأمين الماء إلى أورشليم حيث تشهد على ذلك بركة سلوام والنَفَق[٤] الذي عمل على فتحه (٢ مل ٢٠:٢٠، أخ ٣٢: ٣٠). توسَّعَت التحصينات لتشمل جزءاً من التّلّة الغربيّة ضمن أسوار المدينة.

تحت حكم سنحاريب، وهو خليفة سرجون، توسَّعَت آشور غرباً، فاحتلَّتْ، في العام ٧٠١، المدنَ المحصَّنةَ في اليهودية. صوّر أشعيا الغازيَ الآشوريَّ هابطاً من الشمال على أورشليم، تاركاً رَمُّون وآتياً إلى عيَّات، مروراً بِمِجْرُون، مخزِّناً مِتاعَه في مِكْماش، ونزل في جَبع لإمضاء اللّيل؛ قادته طريقُه عَبْرَ رَامَه، جَلّيم، لايْشَه، عناتوت، مَدْمِينَه وجِبِيم، فخافَ سكانُها وفرُّوا؛ من نُوب لوَّحَ بقبضته ضدّ مرتفعات أورشليم (إش ١٠: ٢٧-٣٢). هنا يَجمعُ بعضُ العلماء بين نبوءة أشعيا هذه وبين غزو آشوري سابق.

تسجّل حوليّاتُ سنحاريبَ الشخصيةُ، التي تُكْمِلُ في العديد من النقاط روايةَ ٢ مل ١٨–١٩، كيف أخضع صيدون، وعَكُّو، وأكزِيب، ومدنًا فينيقية أخرى، وكيف حاصر يافا واحتلّها، وبيت-داجون، وبني-براك، وعقرون، وإلْتِكَه، وتِمْنَه. صُوِّرَ استيلاؤه على لاكيش في نقش آشور، واستعمل المدينة كقاعدة لعملياته ضدّ أورشليم. يبدو أنّ حزقيا قد استسلم، لأنّ سخاريب فَرَض جزيةً ثقيلة، بما في ذلك الفضّة والذّهب، وأثاثٌ غنيّ، وحتّى بنات حزقيا بالذات[٥].

قد ترقى أقوالُ إش ١٥–١٦ (رج إر ٤٨) النبوية إلى زمن غزوٍ عربي من الصّحراء إلى مؤاب، وتصوّر خَرَاب آر، وقِير-حرِس وديبون، وحِشْبُون، وإلِعالَه، وصُوغَر، وسِبْمَه، ويَعزِير.

٤ – وقوف حزقيا في وجه آشور

حاول حزقيا، إبّان ملْكِه، الوصولَ حتى الجنوب في سبيل تأمين الحرية لبلاده. وعند موت سرجون الملك الآشوري، أضحى ملِكُ اليهودية قائدَ الفريق المناهضَ لآشور. ومن سنة ٧١٣ حتى سنة ٧١١، نظّم عصيانًا، لكنه انتهى بهزيمة. دبّر حزقيا الانسحاب في الوقت الذي تمّ فيه احتلال المدينة الفلسطية أزوتوس[٦]. كانت هناك محاولة ثانية سنة ٧٠٥. قام سنحاريب بتدخّل حاسم عبر إخضاعه البابليين، ثمّ تقدّم على الشريط الساحلي ليهزم هناك الفلسطيين. هكذا صنع أيضًا باليهودية واحتلّها. وحدهما لاكيش

(٤) *The Collegeville Atlas of the Bible* (A Liturgical Press Book: Collegeville, Minnesota 1998) 61.

(٥) وفقاً لحوليات سحاريب؛ رج ٢ مل ١٨: ١٤–١٦.

(٦) *Collegeville Atlas of the Bible*, p. 60. 72. 82

وأورشليم قاومتا، الأولى قُهِرَت سريعًا، أما الثانية، وبفضل النفق الذي كان حزقيا قد حفره ليمدّ أورشليم بالماء وقت الحصار، فقد تمكّنت من أن تقاوم. يتكلم النصّ البيبليّ هنا على تحرير عجائبي، إذ أن "شيئًا" ما جعل سنحاريب يتراجع عن الحصار. وهكذا نجت أورشليم، لكن إلى حين!

٥ – انبعاثٌ، وإصلاحٌ، فأُفول

بعد ملْك مَنَسّى الطويل، وسَنَتَي ملْك ابنِه أمون، ارتقى يوشيّا العرش سنة ٦٤٠. وفي السنة الثامنة عشرة من ملْكه، وُجِدَ كتابُ الشريعة في هيكل أورشليم. حقّق يوشيّا إصلاحات دينية من جبع إلى بئر سبع (٢ مل ٨: ٢٣)، وحتّى في مناطق كانت سابقاً تخصّ إسرائيل، التي كان يسيطر عليها، ما يبدو، كَوَالٍ معيَّن من قِبَل آشور. هدم يوشيّا المعابد في بيت إيل وفي مدن السامرة (٢ مل ٢٣: ١٥ و١٩)، وفي أراضي مَنَسّى، وإفرائيم، ونفتالي (٢ أخ ٣٤: ٦ و٧). قُتِلَ في مِجِدّو سنة ٦٠٩ على يد الفرعون نَخُو[٧] (٢ مل ٢٣:٢٩)، الذي كان قد صعد من مصر عبر الطريق الرئيسية الساحلية، وعَبَرَ مَمَرَّ مِجِدُّو، وكان في طريقه إلى الفرات. في أيامه، أُقِيمَتْ مخازن ملكية لجمع الضرائب من حبرون، وزيف، وسُوكُوه، ومِمْشَاة.

أصبح ياهوآحاز ابن يوشيا ملكاً. بعد أن ملكَ ثلاثة أشهر، وُضِعَ تحت الحفظ في رِبْلَه على يد نَخُو، ثمّ أُخِذَ إلى مصر. أُقيمَ شقيقه ياهوياقيم ملكاً خَلَفاً له (٢٣: ٣١–٣٤).

حذّر النّبي إرميا (من عناتوت؛ إر ١:١) شعبَه من غزوِ عدوٍّ يأتي من الشمال، داعياً إيّاه إلى نفخ بوقِ الأنذار في تِقُوَع، ورفع علامة على بيت–هَكِرِم (٦:١). بدا النّبيُّ وكأنّه كان يسمع صَهِيلَ خيولِ الحرب آتيًا من بعيدٍ بُعْدَ دان (إر ٨: ١٦). يلجأ إلى المقابلة بين ثلج لبنانَ الدّائمِ وصخور سِيرْيُون (جبل حرمون)، من جهة، وبين عدم ثبات الشّعب وعدم طاعته (إر ١٨: ١٤–١٥)، من جهة ثانية. وبسبب عدم وفاء بني إسرائيل، سكان اليهودية، بالعهد، سيحلّ بهيكل أورشليم وبالمدينة ما حلّ بشِيلُو (إر ٧:١٢–١٤). وبالرّغم من أنّ بيت ملك اليهوديّة كان "مثل جلعاد" أو كقمّة لبنان بالنسبة إلى الرّبّ، فإنه سيصبح مثل صحراء أو كمدينة مهجورة (إر ٦:٢٢). عندما سِيقَ إرميا إلى المحاكمة، ذكَّرَ الشّيوخَ بأقوال ميخا النبويّة (إر ١٧:٢٦ و١٨). ولأنّ النبيَّ أُوريا بن شمعيّا (من قِرْيَتْ يِعَارِيم) تَفَوَّهَ بأقوال نبوية مماثلة لأقوال إرميا، فقد قتله ياهوياقيم (٢٠:٢٦–٢٣).

(٧) J. YOYOTTE, "Néchao", *SDB* VI (1960), col. 363-393.

٦ – سقوط أورشليم[٨]

خلفَ ياهوياكين والدَه ياهوياقيم. وفي ١٦ آذار سنة ٥٩٧[٩] احتلّ نبوخدنصر أورشليم وأخذ ياهوياكين وقوّاد اليهودية إلى المنفى، وعيّنَ صدقيّا ملكاً. نصح إرميا ملوك أدوم، ومؤاب، وعمّون، وصور، وصيدون، كما صدقيّا بالخضوع لنبوخدنصر (إر ٢٧–٢٨). صوّر حزقيال نبوخد نصر يضرب القرعةَ على مفترقات الطرق حيث تشير علاماتُ الطّرق إلى رَبَّة–عَمّون وإلى أورشليم؛ وقعت القرعةُ على أورشليم (حز ٢١:١٨–٢٣). سنة ٥٨٩ غزا البابليون من جديد اليهودية. أطلق إرميا قولَه النبويَّ (إر ١:٣٤–٧) في الوقت الذي كانوا قد أخذوا فيه المدن المحصَّنَة باستثناء لاكيش، وأزاكَه، وأورشليم. سنة ٥٨٧ أو ٥٨٦، تَمَّ الاستيلاء على أورشليم وأُحرِقَت، و"أُخِذَ يهوذا إلى المنفى خارج أرضه" (٢ مل ٢٥). أُطلِقَ سراحُ إرميا، الذي كان قد أُخِذَ مقيَّداً بالسّلاسل مع أسرى آخرين إلى رامَه، واختير ليبقى في اليهودية (إر ١:٤٠–٦). في مصفاة، مكانِ حكمه، قُتِلَ جَدَلْيَه، الذي كان نبوخدنصر قد أقامه حاكماً على اليهودية، على يد إشمعيل الذي كان بَعَلِيس ملِك عمّون قد عهد إليه بذلك (٢ مل ٢٥: ٢٢–٢٦؛ إر ١٤:٤٠؛ ١:٤١–٣). أهلك إشمعيل الجميع باستثناء عشرة من أصل ثمانين رجلاً كانوا قد وصلوا من شكيم، وشيلُو، والسامرة، حاملين تقادم وبخوراً إلى الهيكل في أورشليم (إر ٤١: ٤–٨). هجم يوحَنَنُ على إشمعيل عند حوض جبعون الكبير، لكن إشمعيل فرَّ إلى عمّون (إر ٤١: ١٢–١٥). وقرب بيت لحم، وضدّ نصيحة إرميا، اتخذ يوحَنَنُ وشركاؤه قراراً بالهرب إلى مصر (إر ٤١: ١٧ي).

٧ – فلسطِيا بعد المنفى – العودة والترميم

سنة ٥٣٨ ق.م. بدأ المنفيّون في بابل بالعودة إلى اليهودية، بعدما أصدرَ قورش قراراً بذلك (عز ١: ٢–٤؛ ٦: ٣–٥). وبتشجيعٍ من حجّاي وزكريا، ابتدأت إعادةُ بناءِ الهيكل في شكلٍ جدّيّ سنة ٥٢٠. بقيت أسوارُ أورشليمَ المهدمةُ وأبوابُها دون ترميم لمدة قرن تقريباً. ولما عاد عزرا مع فريق آخَر من المنفيين، عمّم الشريعة التي أعاد العمل بها، وقام بإصلاحات تتعلّق بالزواج (عز ٧–١٠؛ نح ٨–٩).

لمّا جاء نحميا[١٠] من سوزا لإعادة بناء أسوار أورشليم (نح ١–٢)، استخدم عمّالاً من أورشليم ومن المدن المجاورة بما فيها أريحا،

(٨) A.MALAMAT, "The Last Kings of Judah and the Fall of Jerusalem", *IEJ* 18 (1968) 137-156; *Collegeville Atlas of the Bible,* p. 64-66.

(٩) مُؤرَّخَةٌ في حوليات نبوخدنصر الخاصّة.

(١٠) S.E. McEVENUE, "The Political Structure of Judah from Cyrus to Nehemiah", CBQ (1981) 353-364.

وتِقُوَع، وجبعون، ومصفاة، وزَنُوَاح، وبِتْ–هَكَرِم، وبِت–صور، وكَايْلا (نح ٣). قاومه سَنْبَلَّطُ، حاكمُ السامرة، وطوبيا، حاكمُ عمّون، وجِشِم العربي (نح ٢: ١٩؛ ٤: ٧). يبدو أنّ طوبيا، حاكمَ عمّون، كان يسيطر على عبر الأردن الوسيط؛ كان موطنه في عَرَق الأمير الحديثة، حيث يوجد قبرٌ محفور في الصخر يحمل اسم "طوبيا" منقوشًا في الصخر. يَرِدُ ذكْرُ جِشِم في نَقْشٍ وُجدَ في دِدَان في عرابيا، وابنه قَاينُو يدعو نفسَه "ملك قيدار" في كتابة على كأسٍ من فضّة وُجِدَت في سُوكُوت في مصر؛ يبدو أنّ جِشِم، وبدعمٍ فارسيٍّ أمبراطوري، قد حَكَمَ أرضاً ضَمَّت أرضَ جُوشِين، وسينا، وجنوب فلسطيا، وأدوم، وشمال عَرَابيَا.

حاول أعداءُ نحميا هؤلاء عبثاً استدراجَه خارجَ واحدة من هذه القرى من سهل أونُو (نح ٦: ١ و٢). من بين إصلاحات نحميا كان تحريم الزواج المختلط مع نساء من أشدود، وعمّون وموآب (نح ١٣: ٢٣–٣١).

يتضمّن نح ١١: ٢٥–٣٦ لائحة بالمدن التي خارج أورشليم والتي أقام فيها اليهود، في دِيبُون، وإيكَاب–زيل، وقِرْيَتْ–عَرَبَا، ويشُوَع، ومُولَدَاه، وبِتْ–فالت، وحاصار–شوعال، وبئر–سبع، وصَكْلاج، ومِكُونَه، وعين–رِمّون، وصرعه، ويَرْمُوت، وزَانُوَاح، وأدولام، ولاكيش، وعَزِكَاه، وشعب بنيامين في جبع، ومِكْمَاش، وحاصور، ورَامَه، وجِتَّايِم، وحَدِيد، وزِبُوئِيم، نِبَلاط، ولُدْ، وأُونُو. في عز ٢:٢–٧٠ ونح ٦:٧–٧٣ هناك لائحتان متوازيتان حول عودة المنفيين، قد تكونان إحصاءً من القرن الخامس للجماعة اليهودية، وتتضمّنان رجالاً من جبعون، وبيت لحم، ونِتُوفَاه، وعناتُوت، وبِيتْ–عَصمَوت، وقِرْيَات–يعَارِيم، وشِفِيرَه، وبِئِروت، ورَامَه، وجَبَع، ومكْمَاش، وبت–إيل، وعَيْ، ونِبُو، وهاريم، ويرِيحُو (إيريحا) ، ولُد، وحَدِيد، وأُونُو.

خاتمـــة

استنادًا إلى ما تقدّم، يتّضح لنا كم أنّ دراسة العديد من نصوص العهد القديم، خاصة النبوءات[١١]، هي على علاقة وثيقة بالأحداث التي كانت أمبراطوريات بلاد الرافدين، الآشورية، والبابلية والأكادية، ثم الفارسية، اللاعب الأساسي والفاعل فيها. لقد انطبع قسمٌ لا بأس به من تدخلات الأنبياء وأقوالهم بمجريات الأمور في ذاك الزمان، لذلك يؤمّن الاطّلاع العلمي والدقيق على تلك الحقبات فهمًا أفضلَ للنصوص البيبلية، وللدافع الحقيقي لوضعها، وبالتالي لمضامينها ولأهدافها.

(١١) R. MARTIN-ARCHARD, "Esaïe et Jérémie face aux problèmes politiques", *RHPR* (1976) 208-224; L. RAMLOT, «Prophétisme. Les prophètes dans la vie politique d'Israël», *DBS* VIII (Paris 1971) 1050-1110.

مراجـــع

BRIGHT John, *A History of Israel* (The Westminster Press[3] 1981).

CAZELLES Henri, *Introduction à la Bible* - Édition nouvelle. *L'Ancien Testament* (Desclée: Paris 1973).

——, «Problèmes de la guerre syro-ephraïmite», *Eretz Israel* XIV (Jerusalem 1978).

Collegeville (The) Atlas of the Bible (A Liturgical Press Book: Collegeville, Minnesota 1998).

LEIBOVICI M., "Nobuchodonosor", *SDB* VI (1960), col. 286-291.

MALAMAT A., "The Last King of Judah and the Fall of Jerusalem", *IEJ* 18 (1968) 137-156.

MARTIN-ACHARD R., "Esaïe et Jérémie face aux problèmes politiques", *RHPR* (1967) 208-224.

McEVENUE S. E., "The Political Structure of Judah from Cyprus to Nehemiah", *CBQ* (1981) 353-364.

PEREGO Giacomo, *Interdisciplinary Atlas of the Bible. Scripture, History, Geography, Archeology and Theology* (St Pauls: UK 1999). (Original title: *Atlante Biblico Interdisciplinare,* ed. San Paolo: Roma 1998. Translated by Stewart Foster).

RANLOT L., «Prophétisme. Les prophètes dans la vie politique d'Israël», *DBS* VIII (Paris 1971) 1050-1110.

YOYOTTE J., "Néchao", *SDB* VI (1960), col. 363-393.